مدى الكرمل | Mada al-Carmel מדה אל-כרמל
برنامج دراسات إسرائيل

ملفّات مدى

مشاركة النساء في سوق العمل

قراءة في الدور الإنتاجيّ للمرأة الفلسطينيّة قبل النكبة

ملف رقم 10، 2018

عرين هواري

حيفا

أيّار 2018

برنامج دراسات إسرائيل - ملفات مدى
مشاركة النساء في سوق العمل - ملف رقم (10)

قراءة في الدور الإنتاجيّ للمرأة الفلسطينيّة قبل النكبة

إعداد عرين هواري، محررة مشاركة في مجلة "جدل" ومنسقة برنامج دعم طلاب الدكتوراة في مدى الكرمل.

أيّار 2018

هيئة التحرير: إيناس خطيب
إمطانس شحادة

مدقق لغوي: حنا الحاج

تصميم: جوزيف نويصري

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

هاتف: 8552035-4-972+
http://mada-research.org
mada@mada-research.org

شارع اللنبي51، ص. ب. 9132
حيفا 3109101

"عنّا النسوان بتشتغل متل الرجال وزيادة"

قراءة في الدور الإنتاجيّ للمرأة الفلسطينيّة قبل النكبة

عرين هواري

"عنّا النسوان بتشتغل متل الرجال وزيادة. عنّا فِش كسل، متعوّدين إنّ المرأة متلها متل الزلمة تروح مع جوزها. عندها ولد صغير عندها حدا يقعد عنده بتروح، فِش بتروح بنت حماتها معها. بتشتغل المرَة متل الزلمة"

(مرتا سوسان)[1]

ملخّص:

تتطرّق هذه الورقة، من خلال مراجعة قصيرة في بعض الأدبيّات والوثائق، إلى الدور الإنتاجيّ الذي قامت به المرأة الفلسطينيّة قبل النكبة. وذلك للإسهام في فهم أثر النكبة على التراجع في مكانة المرأة الفلسطينيّة داخل الخطّ الأخضر اقتصاديًّا واجتماعيًّا؛ وهو ما أثّر في العلاقات الجندريّة داخل المجتمع الفلسطينيّ تجاه ترسيخ دونيّة المرأة، وكذلك لدحض الادّعاءات الأكاديميّة والسياسيّة الإسرائيليّة التي تَعزو مكانةَ المرأةِ الفلسطينيّةِ الدونيّةَ، ووجودَها خارج سوق العمل، للثقافة الفلسطينيّة وللعادات والتقاليد التي ترى أنّ مكان المرأة هي داخل البيت.

مدخل:

انعكست إسقاطات نكبة فلسطين، ما سبقها وما تلاها من سياسات استعماريّة استيطانيّة، ثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا على مكانة الفلسطينيّين الذين تحوّلوا إلى أقلّيّة في وطنهم وأصبحوا مواطنين داخل دولة إسرائيل؛ فقدْ فقدَ الفلسطينيّون الأرض التي تُعتبر المورد الرئيسيّ والطبيعيّ للمجتمعات، كما فقدوا سائر الموارد الطبيعيّة، التي سُلِبت منهم خلال الحرب، حين هُدمت 512 قرية،[2] وهُجِّر أكثر من سبعمئة ألف فلسطينيّ من أرضه،[3] بل حتّى ممتلكات الفلسطينيّين الفرديّة الثابتة

[1] من مقابلة مع السيّدة مرتا سوسان (من مهجّرات قرية كفر برعم). ظهرت المقابلة في الفيلم الوثائقيّ "نساء فلسطينيّات" عام 2006، من إخراج رنين جريس وإنتاج جمعيّة "ذاكرات". أجرت خلاله المخرجة مقابلات مع خمس نساء من خمس قرى فلسطينيّة معظمها هُجِّرت: السّجرة؛ سحماتا؛ كفر برعم؛ عمقا؛ ترشيحا. تحدّثت النساء في الفيلم عن حياتهنّ اليوميّة، وعن الأعمال التي قمن بها قبل النكبة، وعن أحداث النكبة. لمشاهدة الفيلم، اضغطوا هنا: (مستقى بتاريخ: 20/10/2017).

[2] Khalidi, Walid, and Sharif, S. Elmusa (1992). **All that Remains**: **The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948**. Washington, DC: Institute for Palestine Studies.

والمنقولة سيطرت عليها الدولة الصهيونيّة، فضلًا عن هدم البنْية التحتيّة الثقافيّة من خلال هدم معظم المدن الفلسطينيّة داخل الخطّ الأخضر وتحويلها إلى مدن إسرائيليّة.[4] لم تنتهِ النكبة مع عام 1948، بل استمرّت إسرائيل بممارساتها الكولونياليّة من خلال السياسات والقوانين، بدءًا بإعلان الحكم العسكريّ مرورًا بما تلاه من قوانين لمصادرة الأرض والموارد والحرّيّات.[5]

تشير الكثير من الأبحاث التي تُعنى بمكانةِ المرأة الفلسطينيّة الاقتصاديّةِ داخل الخطّ الأخضر، وبوجودها داخل سوق العمل، تشير إلى أنّ نسبة النساء العاملات خلال العقود الأخيرة هي نسبة ضئيلة جدًّا؛ إذ لم تتعدَّ نسبتها خلال عقود كثيرة الـ 20%،[6] ومؤخّرًا لا تتعدّى الـ 32.9%.[7] تكشف بعض الدراسات والتقارير سياسات التمييز العنصريّ التي تمارسها الدولة وسوق العمل الإسرائيليّ اللتان تسهمان في إنتاج وترسيخ حالة الفقر لدى الفلسطينيّين في إسرائيل، ولا سيّما النساء.[8] بينما تدّعي بعض الأبحاث الإسرائيليّة أنّ غياب المرأة العربيّة عن سوق العمل ناتج عن أسباب ثقافيّة متعلّقة بالعادات والتقاليد العربيّة التي ترى أنّ مكان المرأة هو داخل بيتها وأسرتها فقط، مقلِّلةً بهذا من أثر سياسات إسرائيل العنصريّة، ومتجاهلةً أثر النكبة وأحيانًا السياسات الإسرائيليّة، لاحقًا للنكبة، على الواقع الاقتصاديّ للمواطنين الفلسطينيّين، ولا سيّما النساء

---

[3] Abu Sittah, Salman. (1998). **Record of the Nakba**. London: Palestinian Awdah Center.

[4] حول النكبة وإسقاطاتها، وحول رواية النكبة وذاكرتها، في الإمكان مراجعة ما يلي:

- Sa'di, Ahmad. And Laila, Abu Loghod. (Eds.). (2007). **Nakba**: **Palestine**, **1948**, **and the Claims of Memory**. New York. Columbia University Press.
- منّاع، عادل. (2015). **نكبة وبقاء: حكاية فلسطينيّين بقوا في حيفا والجليل**. رام الله: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.
- كبها، مصطفى. (2006). **نحو صياغة رواية تاريخيّة للنكبة**. حيفا: مدى الكرمل.

[5] للاطّلاع على المزيد بشأن واقع الفلسطينيّين داخل إسرائيل وسياسات إسرائيل نحوهم:

- روحانا، نديم؛ وصبّاغ خوري، أريج. (محرّران). (2017). **الفلسطينيّون في إسرائيل: قراءات في التاريخ والسياسة والمجتمع**. حيفا: مدى الكرمل.
- Rouaha, Nadim. (Ed.). (2015). **Israel and its Palestinian Citizens**: **Ethnic Privileges in the Jewish state**. Cambridge University Press. Pp. 393-432.

[6] The Working Group on the Status of the Palestinian Women in Israel. (2010). **NGO Report**: **The Status of Palestinian Women Citizens of Israel**. Alternative report submitted to the UN Committee on Elimination of Discrimination against Women. Pp. 39-44. (Retrieved in November 25, 2017)

[7] دائرة الإحصاء المركزيّة، جدول مسح القوى العاملة (2014)، رقم الجدول 8.1.

[8] للاطّلاع على المزيد في هذا الشأن، في الإمكان مراجعة ما يلي:

- دياب، أميمة. (2009). "عمل النساء العربيّات الفلسطينيّات". لدى: بوكسباوم، يعرة؛ داچان، ميخال؛ دياب، أميمة؛ أبراموفيتش، دوريت (محرّرات). **عاملات في سوق عمل مضطرب**. حيفا: مركز ماهوت. ص.ص 77-89. (بالعبريّة)
- إشتيوي، علا. (2008). **نساء عربيّات في سوق العمل**. ورقة عمل من إصدار منتدى نساء من أجل ميزانيّة عادلة. (بالعبريّة)
- الصانع، حنان. (2005). "المرأة البدويّة والعمل". لدى: الصانع، حنان وأخريات (محرّرات). **المرأة العربيّة في النقب: واقع وتحدٍّ**. بئر السبع: معًا- اتّحاد الجمعيّات النسائيّة العربيّة في النقب. ص ص 29-38.
- Khattab, Nabil & Miaari, Sami (Eds.). (2013). **Palestinians in the Israeli labor market**: **A multi-disciplinary approach**. Springer.
- **The Working Group on the Status of the Palestinian Women in Israel**.(**ibid**).

منهم،[9] تقوم مجموعة قليلة من الأبحاث النسويّة باستحضار دَوْر المرأة الفلسطينيّة الإنتاجيّ قبل النكبة، مؤكّدة على أهمّيّة العودة إلى التاريخ عند قراءة وتحليل واقع المرأة الفلسطينيّة.[10] معظم هذه الأدبيّات من إنتاج نساء فلسطينيّات سَعَيْنَ إلى إعادة الاعتبار لرواية المرأة الفلسطينيّة وبعضهنّ يُحْضرن كذلك رواية الرجل الفلسطينيّ بشأن دَوْر المرأة الإنتاجيّ، مستعينات بمنهجيّة التاريخ الشفويّ، إيمانًا منهنّ بأهمّيّة هذه الشهادات في رواية التاريخ الفلسطينيّ وفي فهم ديناميكيّات القوّة داخل المجتمع الفلسطينيّ، ومن ضمنها الجندريّة.[11]

تقوم هذه الورقة، من خلال مراجعة تلك الأبحاث والشهادات الشفويّة التي تحتويها، باستحضار أصوات نساء من مناطق فلسطينيّة مختلفة داخل الخطّ الأخضر، من الشمال والجنوب، من مدن وقرى، فلّاحات وبدويّات ومدنيّات ومهجَّرات داخل وطنهنّ وخارجه، نساء تحدّثن عن حياتهنّ في فلسطين قبل النكبة. تشير الورقة في النهاية إلى الفجوات البحثيّة حول الموضوع.

المرأة الفلسطينيّة المنتجة:

تأتي جملة سوسان المقتبَسة أعلاه، والمأخوذة من مقابلة أُجرِيَتْ معها في فيلم "نساء فلسطينيّات" حول عمل النساء في قرية كفر برعم قبل نكبتها وتهجيرها عام 1948، لتدحض بقوّة وببساطة الادّعاءَ الإسرائيليّ السياسيّ والأكاديميّ، وكذلك

---

[9] للاطّلاع على المزيد في هذا الشأن، في الإمكان مراجعة ما يلي:

- Abdo, Nahla. (2011). **Women in Israel**: **Race**, **Gender and Citizenship**. London and New York: Zed Books. Pp 54-99.
- Shalhoub-Kevorkian, Nadera, Antonina Griecci Woodsum, Himmat Zu'bi, and Rachel Busbridge. (2014). Funding Pain: Bedouin Women and Political Economy in the Naqab/Negev. **Feminist Economics** 20, no. 4: 164-186.

[10] للاطّلاع على المزيد في هذا الشأن، في الإمكان مراجعة ما يلي:

- Abdo, Nahla. (2011). Ibid.
- Espanioly, Nabila. (1997). Palestinian Women in Israel - 'Herstory'. The Working Group on the Status of the Palestinian Women in Israel. **NGO Report**: **The Status of Palestinian Women Citizens of Israel**. alternative report submitted to the UN Committee on Elimination of Discrimination against Women. (Retrieved in November 25, 2017)

[11] للاطّلاع على المزيد في هذا الشأن، في الإمكان مراجعة ما يلي:

- حسن، منار. (2008). **المنسيّات: المدينة والنساء الفلسطينيّات والحرب على الذاكرة**. دراسة للحصول على لقب الدكتوراة. تل أبيب: جامعة تل أبيب (بالعبريّة).
- ميعاري، لينا. (2015). "أدوار الريفيّات الفلسطينيّات: قرية البروة نموذجًا". لدى: كناعنة، روضة؛ ونصير، إيزيس (محرّرتان). **في غربة الوطن: الإثنيّة والجندر لدى الفلسطينيّين في إسرائيل** (ترجمة: سلافة حجّاوي). رام الله: مدار-المركز الفلسطينيّ للدراسات الإسرائيليّة. ص ص 181-201.
- **Kassem**, **Fatma**. (**2011**). **Palestinian Women**: **Narrative histories and gendered memory**. **London and New York**: **Zed Books**.
- زعبي، همّت. (2013). تأثير النكبة في مكانة النساء المهجّرات: حالة مهجّرات صفّورية والمجيدل في الناصرة. **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 95، ص ص 108-134.
- جريس، رنين. (2006). **نساء فلسطينيّات** (فيلم وثائقيّ). إنتاج جمعية "ذاكرات". (مستقى بتاريخ 2017/05/07).

الادّعاءَ الاستشراقيّ، بشأن المجتمع العربيّ والفلسطينيّ "المحافظ" الذي لا يسمح لبناته بالخروج إلى العمل لأسباب ثقافيّة؛ إذ تؤكد روايتها أنّ عمل النساء لم يكن أمرًا استثنائيًّا، بل كان الأمرَ العاديَّ والطبيعيّ في حياة نساء تلك البلدة. تُكرّر سائر النساء اللواتي ظهرن في الفيلم، وعشن في قرًى فلسطينيّة مختلفة في فلسطين قبل نكبتها، يكرّرن الروايةَ ذاتها التي تؤكّد أنّ النساء، وأحيانًا الفتيات، عملن كما الرجال. فقد قالت تفّاحة ناطور (المهجَّرة من قرية عمقا) عن نساء بلدها:

"اللي عندها حدا تحطّهن [أي أطفالها] عنده، واللي معندهاش توخدهن معها عالحصيدة... كلّ أهل بلدنا كانت تروح، النسوان اللبّانات[12] على عكّا، اللي عنده طرش عنده معزة إشي بدّه يبيع حلبياته يروّب ويحمل عَراسه ويروح، الـمَرَة الحبلى لا بهمّها حبَل ولا إشي محمّلة هالدست"...

وتؤكّد ذلك أيضًا غوسطة دكور التي هُجِّرت طفلةً مع أهلها من قريتها ترشيحا خلال الحرب ثمّ عادت بعد انتهائها:

"النساوين تروح عالحطب كانوا يروحوا عالوعور... كنت ألحق إمّي صغيرة؛ هي تحطّب وأنا ألـمّ وتعمله حملة، كلّ يوم كانت النسوان تروح كلّ نسوان ترشيحا" **...**

لا تدّعي هذه الورقة، ولا الأدبيّات التي تتطرّق إليها، أنّ النساء الفلسطينيّات -مدنيّاتٍ كنّ أَم فلّاحات أَم بدويّات- شاركن على قدم المساواة في الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة في فلسطين قبل النكبة، وكذلك هي لا ترى أنّ الثقافة السائدة في جميع مناطق فلسطين التاريخيّة كانت خالية من ديناميكيّات القوّة وقهر النساء. لكنّنا ندّعي أنّ نكبة فلسطين، ما سبقها وما تلاها من ممارسات استعماريّة استيطانيّة، أدّت إلى تراجع كبير في الأدوار الإنتاجيّة التي قامت بها المرأة الفلسطينيّة، وبالتالي في مكانتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، وحالت دون استمرار علاقات اجتماعيّة واقتصاديّة وجندريّة كانت في فلسطين. لم تستهدف النكبةُ وتلك الممارساتُ المرأةَ الفلسطينيّة على وجه الخصوص، وإنّما مثل كلّ مشروع استعمار استيطانيّ رمت بالأساس إلى السيطرة على الأرض والحيّز وتقليص الوجود الفلسطينيّ، ولكن إسقاطات هذا المشروع انعكست على مكانة المرأة الاقتصاديّة، وبالتالي على العلاقات الجندريّة داخل المجتمع الفلسطينيّ.

أدوار المرأة الإنتاجيّة داخل القرية الفلسطينيّة قبل عام 1948:

تدّعي نهلة عبدو أنّ سياسات الانتداب البريطانيّ، ولا سيَّما الاقتصاديّة منها، والتي تعزّزت عبْر أَجِنْدة المشروع الاستيطاني الصهيونيّ الاقتصاديّة والسياسيّة، أثّرت في العلاقات الاجتماعيّة والجندريّة داخل المجتمع الفلسطينيّ، وكذلك في أدوار العائلة الفلسطينيّة.[13] وذلك أنّه مع نهايات الحقبة العثمانيّة كانت العائلة هي المؤسّسة الاجتماعيّة المركزيّة، والوحدة الأساسيّة للإنتاج ولإعادة الإنتاج (الإنجاب) وكذلك للاستهلاك. وقد كانت هذه المؤسّسة وديناميكيّاتها الاقتصاديّة تحدّد العلاقات الجندريّة والاجتماعيّة التي كانت تشهد تغيُّرات تاريخيّة بناء على السياقات الاقتصاديّة والسياسيّة. ميزّت عبدو

[12] المقصود بائعات اللبن ومشتقّاته; الزباديّ، واللبنة، والجبن.

[13] Abdo-Zubi, Nahla. (1987). **Family**, **Women and Social Change in the Middle East**: **The Palestinian Case**. Toronto: Canadian Scholars' Press.

مسارين حدثا في تلك الفترة نتيجة للقوانين والسياسات البريطانيّة، كان أهمّها تعديل قوانين الضرائب العثمانيّة،[14] أدّيا إلى عمليّة إفقار السكّان الأصليّين وفقدانهم لأراضيهم لصالح المؤسّسات الانتدابيّة والحركة الصهيونيّة؛[15] المسار الأوّل هو فقدان الأرض والمنالية المباشرة للزراعة والذي عنى فقدانًا جزئيًّا للمجال العموميّ الذي احتلّته النساء الفلّاحات تقليديًّا، بينما كان المسار الثاني تطوّر قِطاع رأسماليّ غربيّ خلق فضاء عموميًّا خاصًّا بالمستوطنين اليهود فقط، منفصلًا عن السكّان الأصليّين ومُقصِيًا لهم؛ وهو ما جلب الفقر للفلّاحين الفلسطينيّين، وفي النهاية حوّل جزءًا كبيرًا من فقرائهم إلى بروليتاريا، وأفقد نسبة كبيرة جدًّا من نسائهم عملهنّ الزراعيّ كفلّاحات ومزارعات وكذلك انخراطهنّ في الأعمال المتعلّقة بالزراعة أو بالأرض كجمع الحطب والرعي والحلْب وصناعة اللبن. وقد تأثّر المجتمع الفلسطينيّ بصورة خاصّة من تزامن السياسات الاقتصاديّة البريطانيّة مع إدخال الحركة الاستيطانيّة الصهيونيّة للتكنولوجيات الرأسماليّة في الزراعة، ممّا أدّى إلى تقويض أهمّ إنتاجَيْن زراعيَّيْن في فلسطين: البرتقال والزيتون (الزيت والصابون) اللذَيْن اعتمد العمل فيهما على نحوٍ أساسيّ على النساء، إنتاجًا وتسويقًا.[16] إضافة إلى ذلك، تشير عبدو إلى أنّ سلطات الانتداب أنشأت مؤسّسة المخاتير، بحيث حوّلت مَهمّة المختار التقليديّة التي كان يتولّاها خلال الفترة العثمانيّة أكبرُ أفراد العائلة ممثِّلًا لها أمام السلطات، ليصبح خلال فترة الانتداب معيَّنًا من قِبل حكومة الانتداب وممثِّلًا لها أمام السكّان، وهو ما عزّزته لاحقًا إسرائيل، فكان له أثر في هدم بنْية الحَمولة وفي استبدال القيادات التقليديّة بقيادات غير شرعيّة عيّنتها إسرائيل لتخدم مصالحها ولتزيد بالتالي من قمع المرأة. تقول عبدو إنّه في ما بعد عهد الانتداب، وعلى أثر النكبة وفقدان الغالبيّة العظمى من الأراضي التي بقيت للفلسطينيّين، وكذلك تهجير الغالبيّة العظمى من السكّان وقوانين وسياسات مصادرة الأرض التي تلتها، أصبحت البَلْتَرة (العمل كبروليتاريا) والفقر ميزتين للعائلة الفلسطينيّة، وترسّخت التغيُّرات التي بدأت في الحقبة الانتدابيّة، وكذلك الجندريّة منها. فمع فقدان العائلة لدَوْرها الإنتاجيّ وتحويل هذا الدور إلى الرجل فقط، قامت العائلة بترسيخ دَوْرها الإنجابيّ، حيث لم يبقَ بعد فقدان الأرض للمحافظة عليه والسيطرة عليه إلّا المبنى الاجتماعيّ. ذاك أدّى إلى ترسيخ طابعه الذكوريّ وإعادة إحياء بعض المفاهيم التقليديّة تجاه أدوار النساء، ومن ضمنها مفهوم "العِرض" المرتبط بسلوك المرأة.[17]

تشير عبدو إلى المرأة الفلسطينيّة الفلّاحة بعامّة، في حين تختار لينا ميعاري نساء قرية البروة المهجَّرة نموذجًا للنساء الفلسطينيّات، لتتحدّث عن التغيُّرات التي حصلت في حياة النساء الفلسطينيّات الريفيّات في الفترة الواقعة بين عام 1930

[14] قوانين الضرائب ورسوم الطابو البريطانيّة رفعت الأعباء المادّيّة على الفلّاحين على نحوٍ بالغ، حيث استبدلت ضريبة العُشر العثمانيّة التي كانت تؤخذ من المحاصيل عام 1924 بضريبة تُجبى نقدًا فقط، وبطرق عنيفة كالعقوبات وتخريب المحاصيل والسَّجن ومضايقة النساء والأطفال.

Abdo, Nahla. Ibid. Pp. 74-75. -

[15] تشير –مثلًا– إلى أنّه خلال الفترة الواقعة بين العامين 1920–1947 صودِرَ نحو 1,700,000 دونم، أي ما يعادل 26% من الأرض الزراعيّة من المُزارع الفلسطينيّ الذي يعمل فيها، منها مليون دونم انتقل إلى ملْكيّة المستوطنين اليهود.

- Abdo, Nahla. Ibid. P. 66.

[16] Abdo, Nahla. Ibid. Pp. 69-72.

[17] Abdo-Zubi, Nahla. Ibid. Pp. 29-41.

وعام 1960. تحلّل ميعاري، معتمدةً على مقابلات أجرتها مع نساء ورجال لاجئين من قرية البروة، التحوّلاتِ التي طرأت على أدوارهنّ الإنتاجيّة نتيجة للتغيُّرات في المباني السياسيّة والاقتصاديّة.[18]

تقوم ميعاري في بحثها بدحض الرواية الاستشراقيّة والصهيونيّة التي تدّعي أنّ النساء يعشن سجينات في حيزّات ضيّقة ومعزولة، وأنّهنّ لا يحرَّرن إلّا من خلال المستعمِر وحداثته. وتخالف، في نتائج بحثها، الروايةَ الوطنيّة الفلسطينيّة التي سيطرت عليها النزعة الرومانسيّة في تصويرها للفلّاحين الفلسطينيّين، ممّا جعلها تقلّل من مكانة القيمة الإنتاجيّة لعمل النساء الفلّاحات. تدّعي ميعاري أنّ النساء في قرية البروة شكّلن عمادًا اقتصاديًّا للعائلة؛ فقد قمن بالعديد من الـمَهامّ، من بينها تلك التي كانت تُعتبر "أعمالًا رجاليّة". كانت النساء الشابّات من الأُسَر ذات الملْكيّة البسيطة والمتوسّطة يعملن في الزراعة، بينما النساء اللواتي لم يملكن أراضيَ في الزراعة عملن موسميًّا في أراضي الآخرين. بعض نساء القرية عملن أيضًا في بيع حليب مواشيهنّ في مدينة عكّا. كانت النساء المسنّات يعملن في الأعمال المنزليّة وفي رعاية الأطفال. وإذ تشير ميعاري إلى تقسيم العمل بحسب النوع الاجتماعيّ في بعض الوظائف، فإنّها تتناول كذلك المرونة التي اتّسمت بها تلك التقسيمات التي لم تكن صارمة، وتشير أيضًا إلى الـمَهامّ المشتركة للنساء والرجال.

من ضمن الأعمال التي كانت النساء يقمن بها جمعُ الحطب ونقلُ الماء من الآبار، وكذلك تربية المواشي وحمْلها وخضّ الحليب وحمْله إلى سوق عكّا؛ بينما كان الرجال والنساء يقومون معًا بالحصاد وبقطف الزيتون.

تقول مثلًا أمّ نايف (مقتبَسة لدى ميعاري):[19]

> *"وكانت الحراثة وبذر البذور من مسؤوليّة الرجال وكانت النساء يجمعن الأعشاب ويربّين المواشي، وكان الرجال والنساء يعملون معًا في أوقات الحصاد وقطف الزيتون. وبالنسبة للماء، أذكر أنّني كنت أركب حمار عمّي وأذهب لجلب الماء. اعتادت النساء المشي وحَمْل جرار الماء على رؤوسهنّ -إلّا إذا كان لديهنّ حمار".*[20]

تشير ميعاري كذلك إلى بعض الإستراتيجيّات التي اتّبعتها النساء بعد النكبة وخلال فترة الحكم العسكريّ من أجل الصمود والبقاء، حيث عملن في الأرض وضمن نظام الضمان للأرض التي سيطرت عليها إسرائيل بعد إرغام أهاليها على المغادرة خلال النكبة. وواصلت النساء العمل في هذه الفترة مع الرجال كشريكات مهمّات في العمل الزراعيّ. وتشير أيضًا إلى إستراتيجيّة "التسلّل"؛ فقد "تسلّل" الناس إلى البروة قريتهم من أجل زراعة أرضهم وهي معلَنة كمنطقة عسكريّة. وفي ذلك تقول أمّ غازي:

> *"أخذتْ أمّي تذهب مع النساء الأخريات إلى البروة من أجل قطف الفاصوليا الخضراء والبامية التي كنّا قد زرعناها في القرية، وكنت أرافقها. قام المستوطنون اليهود في البروة مرّة بمحاصرة النساء وهدّدوا بقتلهنّ. بدأت أمّي بالصراخ وكنت أمسك بثوبها وأصرخ أنا أيضًا".*[21]

[18] ميعاري، لينا. مصدر سابق.

[19] ميعاري، لينا. مصدر سابق. ص 193.

[20] المصدر السابق.

في حين فقدت بعض النساء اللواتي كنّ يعملن في قراهنّ عِلْمهنّ بعد النكبة ومصادرة الأرض، نجد أنّ بعض النساء الأخريات لم يعملن قبل النكبة، وذلك لأنّ عائلاتهنّ كانت تملك أراضيَ ولكنّهنّ عملن بعد النكبة لأنّهنّ فقدن مقوّمات حياتهنّ. وقد عملت بعض النساء كأيدٍ عاملة رخيصة في المَزارع اليهوديّة.

"إمّي كانت تشتغل عند الناس بالحصيدة بالزتون. إمّي تروح تا تشتغل بالزتون يعطوها أكثر ما يوخدوا هنّي - توخد مونتها. والقمح نفس الشي. يعطوها ما نعتاز ولا إشي. الخضرا كانت الناس تحوّش وتفرّق على بعض مش مثل اليوم تروحي تشتري. بيعتولها بامية، بندورة، كوسا، قرع، خيار- كنّا عايشين مثلنا مثل إللي عنده فلاحة [أراضٍ مزروعة]".[22]

تقوم همّت زعبي بدراسة تأثير النكبة على مكانة النساء الفلسطينيّات المهجَّرات، ولا سيّما مكانتهنّ الاقتصاديّة، وتتّخذ مهجَّراتِ صفّورية والمجيدل نموذجَيْن.[23] وتقوم بهذا من خلال المقارنة بين نشاطهنّ الاقتصاديّ قبل النكبة ونشاطهنّ ذاك بعدها، وذلك من خلال بحث نوعيّ شمَلَ مقابلات مع مهجَّرات ومهجَّرين من القريتين. وتدّعي زعبي في دراستها أنّ للنكبة ولقيام إسرائيل أثرًا بالغًا على تدنّي مكانة الفلسطينيّين الاقتصاديّة الذين بقوا في وطنهم، ولا سيّما المهجَّرين والمهجَّرات من بينهم، وذلك نتيجة الحرب والدمار والتهجير وتبعات النكبة، وكذلك بسبب مصادرة الأرض والسياسات التي انتهجتها الدولة اليهوديّة. وتقول في ما يتعلّق بالنساء إنّهنّ فقدن دَورهنّ الفاعل الذي تمتّعن به قبل النكبة؛ فقد قامت النساء قبل النكبة بأعمال الزراعة أو الحصاد وفِلاحة الأرض، وقمن بتوفير المؤونة وبأعمال منزليّة مركزيّة في اقتصاد المنزل. وتضيف زعبي أنّ النكبة، التي اقتلعتهنّ من بيوتهنّ ومن أراضيهنّ، أدّت كذلك إلى تقهقر فاعليّتهنّ الاقتصاديّة وإلى تبنّيهنّ دَوْرًا اتّكاليًّا أثّر على مكانتهنّ الاجتماعيّة أيضًا. في هذا السياق، تروي أمّ خالد (كانت في الـ 76 من العمر حين أُجرِيَت المقابلة معها) عن حياة النساء في قرية صفّورية:

"الحياة كانت كثير حلوة، فِش إشي ناقص. أبوي كان عنده حرّاثة يحرثوا الأرض، والنسوان ما كانت ترتاح، ربّنا الله، إلّا بكوانين، معقول يكونوا شهرين راحة. يعني كنّا نعشّب الأرض ونحضّرها للزراعة. نزرع شعير وقمح وبعدين نحصد. بعدين في الصيف، في زراعة الصيف: الخيار والفقّوس والبامية. بعدين الزتون كتّ الزتون ولمّة وعصره وتشرين الأوّل والثاني نشقّ الأرض ونحضّرها للزراعة. يعني يا دوب نرتاح شهرين. هذا برنامج كلّ السنة." [24]

وتضيف أمّ يحيى (وهي كذلك من مهجَّرات صفّورية):

"الزتون نوخده على الحمير والبقر للمعصرة. فِش قَعَدان كلّ السنة، زلام ونسوان وولاد. حتّى إللي كان عنده حرّاثة وحصّادين كان يوقّفلهن [يراقبهم]. الأيّام العاديّة، مش بأيّام الحصيدة، كنّا يا ستّي نفلح البساتين. نوكل

---

[21] المصدر السابق. ص 197.

[22] أمّ جمال (وكانت في العَقد الثامن من العمر حين إجراء المقابلة) تتحدّث عن عمل النساء في قرية المجيدل قبل النكبة (زعبي، همّت. مصدر سابق. ص 122).

[23] زعبي، همّت. مصدر سابق.

[24] زعبي، همّت. مصدر سابق، ص 119.

نحوّش ونبيع. الزلام تبيع. ما كان ناقصنا إشي. بعدين كلّ عيلة عندها بقرة أو معزى. نحلب ونعمل لبنة وجبنة. كلّ الشغل تعب. بَس كانت حياة حلوة. ما كنّاش محتاجين إشي. كانت حياتنا مستورة. البيار ملانة. صفّورية كانت بيارها ملانة مَيّ. نشرب ونطبخ ونغسل منها".[25]

روايات النساء الشفويّة تمتدّ نحو مناطق فلسطين كافّة، ففي حين يشير البحثان أعلاه إلى دَوْر المرأة في قرى الجليل، فإنّ روايات شفويّة جُمِعت من نساء من منطقة مركز فلسطين تعزّز روايات النساء أعلاه من مناطق أخرى. ففي دراستها التي تقوم خلالها بإيجاد فضاء عامّ لأصوات النساء الفلسطينيّات لاستعادة روايتهنّ لأحداث النكبة ولـِ "أيّام الإنجليز" ثمّ لـِ "أيّام العرب مقابل أيام إسرائيل"، تقول فاطمة القاسم:[26] "إنّ النساء من خلال رواياتهنّ يستعِدْنَ شخصيّتهنّ ومكانتهنّ والاعتراف بحقّهنّ في تعريف واقعهنّ الخاصّ وتأسيس هُويّاتهنّ الخاصّة وتسمية تاريخهنّ".[27] جميع النساء اللواتي قابلْتُهنّ يسكنَّ في اللدّ والرملة. بعضهنّ لجأن إليها من قرى أو بلدات قريبة مثل زكريّا والمجدل. بالرغم من أنّ مركز الدراسة هو رواية النساء حول حياتهنّ بصورة عامّة، لا حول أدوارهنّ الاقتصاديّة فحسب، تتطرّق بعض النساء في سياق رواياتهنّ لحياتهنّ في ما قبل النكبة إلى أدوارهنّ الإنتاجيّة، حيث تقول فاطمة (وهي من قرية زكريّا):

"خزنّا الحبوب في الجرار، ملأناها بالحنطة والشعير والعدس والحمّص والبقوليّات والذرة... وكان الرجال يحصدون والنساء يجمعن والجميع يعبّئون معًا حتّى ننتهي".[28]

ترى الباحثة من خلال روايات النساء أنّه كانت لهنّ درجة معيّنة من السيطرة على أنفسهنّ، إذ بالرغم من ممارسات القهر من الإنجليز فقد أتاحوا لهم مساحة تحرُّك بحرّيّة في أراضيهم وحقولهم ولم يسيطروا على حياتهنّ اليوميّة التي فقدوها تمامًا بعد النكبة والتهجير[29]. وكذلك تروي أمّ رزق -فتحيّة عبد الفتاح خير (وهي من قرية كفر عانة شرقيّ مدينة يافا) -ضمن مقابلة أجرتها معها رنين جريس عن حياتها كمزارعة قبل النكبة وتهجيرها:[30]

"كانت الحياة منيحة وكنّا مبسوطين. كنّا نحصد، نقلع، ندرس، نضمّن بيّاراتنا ونوكل. بيّاراتنا ضمّنّاهم قبل ما طلعنا. تركنا البرتقال في الحوش، مقطوع وجاهز حتّى نحطّه بالصناديق. والله برتقال دار عمّي ضلّ على

---

[25] زعبي، همّت. مصدر سابق، ص 120.

[26] **Kassem, Fatma. Ibid.**

- القاسم، فاطمة. (2015). "نساء فلسطينيّات يسمّين الأحداث التاريخيّة". لدى: كناعنة، روضة؛ ونصير، إيزيس. (محرّرتان). **في غربة الوطن: الإثنيّة والجندر لدى الفلسطينيّين في إسرائيل** (ترجمة سلافة حجّاوي). رام الله: مدار-المركز الفلسطينيّ للدراسات الإسرائيليّة. ص ص 149-170.

[27] اعتمادًا على قراءة بيل هوكس لذلك الدور الذي يُعزى لرواية المرأة: القاسم، فاطمة. المصدر السابق. ص 149.

[28] مقتبسة لدى: القاسم، فاطمة. المصدر السابق. ص 163.

[29] المصدر السابق.

[30] أجريت المقابلة في مخيّم الوحدات في الأردنّ.

أرضه. النسوان كانت تشتغل مع جيزانها بكلّ مكان. أنا بقيت أزرع بندورة، خيار، ملفوف، وبرتقال، وكنت أفلح وأحرث. أنا كنت وحيدة لأهلي، أشتغل كلّ شي لحالي؛ أقوم من الصبح وأرجع المغرب على البيت".[31]

ليس من قبيل المصادفة أن تستخدم أولئك النساء صيغة الجمع (نحو: "خزنّا الحبوب، ملأناها في الجرار"...؛ "كنّا نحصد وندرس")؛ فهي روايات جماعيّة لبنات القرية وليست رواية المرأة المتحدّثة وحدها. هي تمثّل واقع الفلّاحات الفلسطينيّات في تلك الفترة وفي بلدات مختلفة في فلسطين قبل النكبة، وذلك أنّ النكبة وما سبقها وما تلاها حجبت النساء عن حيّزهنّ الطبيعيّ الذي عملن وأنتجن داخله.

النساء داخل المدن في أدوارهنّ الإنتاجيّة:

في حين تقوم ميعاري في بحثها بتعرية الخطاب الاستشراقيّ والصهيونيّ الذي يرى المرأة سجينة تنتظر تحرير المستعمِر لها، وبتعرية الخطاب الوطنيّ الفلسطينيّ الذي قام برَمْنَسة القرية ونسائها وتجاهَلَ دَوْرَ سكّان القرى الإنتاجيَّ (والنساء ضمنهم)، تقوم منار حسن بتعرية محاولات نفي وجود المدينة الفلسطينيّة والتحوّلات الاقتصاديّة والجندريّة والثقافيّة التي قام بها الخطاب الصهيونيّ من ناحية، والخطاب الوطنيّ الفلسطينيّ من ناحية أخرى؛ إذ فضلًا عن رَمْنَسة القرية، في الخطاب الفلسطينيّ، صَوّرت الروايةُ الصهيونيّة المجتمعَ الفلسطينيّ مجتمعًا ريفيًّا خاليًا من المدينة وبالتالي من حراك النساء الاقتصاديّ والثقافيّ. كذلك إنّ الخطاب الذي تبنّته الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة صوّر فلسطين قريةً وشعبَها ريفيًّا فقط. في بحث منار حسن حول المدينة الفلسطينيّة وذاكرة المدينة، تجمع شظايا الذاكرة التي لم يوثَّق معظمها داخل أرشيفات، لتستعيد ذاكرة المدينة التي هدمتها الحركة الصهيونيّة وهدمت ملامحها الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.[32]

تقوم حسن بذلك من خلال الإصغاء لرواية النساء الشفويّة، ملتقية بعشرات النساء اللواتي عشن في المدن الفلسطينيّة قبل نكبتها (حيفا؛ عكّا؛ يافا؛ اللدّ؛ الرملة...)، باحثةً بين المأثورات المرويّة شفويًّا والمذكورة داخل صحف ومجلّات تلك الفترة عن ذاكرة المدينة ونسائها وحياتهنّ الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة وكذلك في علاقات النوع الاجتماعيّ داخلها. وفي ما يتعلّق بدور المرأة الإنتاجيّ ومشاركتها في سوق العمل، تستعيد من خلال ذاكرة النساء تلك الأدوارَ.[33] تتحدّث عن عمل النساء في التدريس والتمريض، وكذلك في الطبّ والقانون (تلك المهن التي كانت غالبًا من نصيب نساء المدن المتحدّرات من الطبقات الوسطى والعليا)، وتتوسّع بشأن مهن نسائيّة تطوّرت خلال فترة الانتداب البريطانيّ في الدول العربيّة وفي فلسطين، حيث نشأ في تلك الفترة مجال عموميّ مدينيّ تَطوَّرَ خلاله مفهوم الأزياء الذي أدّى على نحوٍ خاصّ إلى تطوُّر مهنة التصميم والخياطة التي نشأت مع مسار التمدّن والتغيّر الذي رافقه في الموضة والأزياء، وكذلك في الأنماط

---

[31] جريس، رنين. (2007). من ذكريات فلسطين قبل النكبة وبعدها: مقابلة مع السيّدة فتحيّة عبد الفتّاح خير (أمّ رزق) من قرية كفر عانة من مواليد عام 1918. **نشرة السوار**، 35، ص ص 11- 15 (مستقاة بتاريخ 2017/11/16).

[32] حسن، منار. مصدر سابق.

[33] وللقراءة عن أدوار النساء الإنتاجيّة في مدينة القدس في الفترة ما بين عام 1920 وعام 1928، في الإمكان العودة إلى كتاب عايدة النجّار "القدس والبنت الشلبيّة"، الذي تتحدّث فيه عن الحياة اليوميّة في القدس في تلك الفترة، وعن أدوار النساء الاجتماعيّة والثقافيّة، وعن تعليم النساء في القدس وممارستهنّ لبعض المهن كالخياطة والتدريس والطبّ والعمل الخيريّ ومشاركة النساء في العمل الصحفيّ، وعلى نحوٍ خاصّ تتطرّق إلى عمل المرأة الفلسطينيّة النضاليّ في القدس في عهد الانتداب البريطانيّ.

- النجّار، عايدة. (2012). **القدس والبنت الشلبيّة**. عمّان: السلوى للدراسات والنشر.

الاستهلاكيّة لدى الطبقتين الوسطى والعليا، والتي غدت إحدى أكثر المهن النسائيّة مطلوبيّةً في تلك الفترة التي شهدت خلالها المدنُ الواقعة تحت الاستعمار، ومنها المدن الفلسطينيّة، نموًّا كبيرًا في الحيّز المدينيّ العامّ أدّى إلى تطوُّر الموضة كظاهرة مدنيّة. في تلك الفترة، كانت صناعة الألبسة في المصانع ما زالت في أولى بداياتها، ممّا أكسب صاحبات مهنة التصميم والخياطة مكانة عالية واستقلالًا اقتصاديًّا. بعض النساء مارسن المهنة من خلال تخصيص غرفة داخل البيت، وأخريات أقمن مَخايطهنّ في مكان خاصّ، وبعضهنّ أقمن مدرسة لتعليم الخياطة للشابّات. استفادت من تلك المهنة نساء من المدن، ونساء أخريات قَدِمْن من القرى للعمل في الخياطة. خلال المقابلات، تستمع حسن إلى أدوار النساء كخيّاطات أجيرات وكصاحبات لمخايط عملن في تشغيل نساء أخريات وأَعَلْنَ عائلاتهنّ. المقابلات التي أجرتها حسن تعيد إلى الذاكرة روايات العديد من النساء اللواتي أنشأن ورشات ومدارس للخياطة، وأولئك اللواتي عملن في تلك المخايط. على سبيل المثال، تتحدّث إحدى النساء عن ورشة خياطة خاصّة بباسمة خلف التي اعتادت أن تترك منزلها في الناصرة لتقيم خمسة أيّام في الأسبوع في مدينة بيسان حيث مخيطتها.[34]

> *"في السنة الأولى تعلّمت أختي لديها، وكنت أنا طالبة في الفوج الثاني بعدها، بعد أن أنهيت دراسة الثانويّة في الناصرة. ولقد تتلمذتْ على يدها في كلّ سنة ما بين 25 وَ 30 طالبة. ولكن بعد أقلّ من أربع سنوات دخل اليهود وأخرجونا".*

وقد خرجت هي من المدينة ولم تعُدْ إليها.[35] تتابع حسن في استعادة ذاكرة المدن ونسائها ذوات الدور الاقتصاديّ أيضًا من خلال قصّة الخيّاطة حنّة الحدّاد (من حيفا) التي خصّصت غرفتين من بيتها للخياطة وعلّمت داخلها بعض الشابّات. حضرت إلى تلك الورشة نساءٌ من بيروت ليتباهين بصنع فساتين العرس لديها. وقد أعالت حنّة عائلتها من عملها. تعيد حسن ذاكرة المرأة وذاكرة المدينة فتروي قصّة مخيطة أَديل قردحجي، ومن خلالها رواية مدينة طبريّا؛ فقد أنشأت قردحجي مخيطة في بيتها في طبريّا، ولاحقًا كرّست معرفتها لخدمة جمعيّة النساء الأرثوذكسيّات في يافا. وتستعيد أيضًا رواية وداد زعبي (من الناصرة) التي من خلال عملها أسهمت في تعليم أختها في دار المعلّمات في القدس، ولاحقًا أسهمت في إعالة أسرتها بعد الزواج.

ومن خلال مراجعة لأرشيف الصحف الفلسطينيّة التي صدرت في تلك الفترة، توثّق حسن قيام النساء باستغلال الصحف الفلسطينيّة الصادرة في تلك الفترة، للإعلان عن مصالحهنّ الاقتصاديّة كالإعلان عن الأزياء وعن دورات تعليم الخياطة. والبعض توجّه كذلك إلى بنات القرى القريبة منهنّ، وقد كانت الإستراتيجيّة التسويقيّة تشدّد على أهمّيّة تعلُّم المرأة مهنة الخياطة كي توفّر على عائلتها شراء الملابس، وبالتالي كي تخدم اقتصاد المنزل بهذه الطريقة. تشير حسن أيضًا إلى استفادة الجمعيّات الخيريّة من هذه المهنة لرفع مدخول الجمعيّات في سبيل رعاية الآخرين كالأطفال والمحتاجين حيث فتحت

[34] حسن، منار. مصدر سابق. ص ص 149–152.

[35] مقابلة مع هدى جرجورة. المصدر السابق. ص 152.

الجمعيّات النسائيّة أيضًا ورشات للخياطة لتشغيل النساء في يافا والقدس، وتشير كذلك إلى إقامة تعاونيّة نسائيّة في حيفا هي "جمعيّة الرخاء للخياطة التعاونيّة -حيفا".[36]

وعن طريق المذكّرات والسيَر الذاتيّة وأرشيفات المحاكم الشرعيّة، تعيد حسن إلى الذاكرة مِهَنًا أخرى مارستها نساء الطبقات الفقيرة مرتبطةً بالفنّ والغناء والرقص، هي مهنة الجنكيّات وهنّ المغنّيات والراقصات والعازفات اللواتي عملن في الأفراح وفي المناسبات الأخرى التي فتحت للنساء الطريق أمام الاستقلال الاقتصاديّ والحيّزيّ. وهي كذلك ظاهرة مدنيّة وجدت لها شواهد في يافا والقدس وحيفا ونابلس. أولئك النساء (وهنّ من الطبقات الفقيرة) تركن عائلاتهنّ وعشن مع مجموعة من الجنكيّات في بيت واحد، تدرّبن على المهنة عن طريق النساء السابقات لهنّ. وقد عملت في تلك المهن نساء من طوائف مختلفة. ظهرن في الأعراس، وفي الاستقبالات، وفي مهرجان النبيّ روبين في اللدّ، وأحيانًا رافقن النساء في الحمّام العموميّ. تشير حسن إلى أسماء الكثيرات من الجنكيّات اللواتي اشتهرن، وإلى أسماء فِرَقهنّ.[37]

تتناول حسن ظاهرة هجرة نساء عزباوات من القرية إلى المدينة، أو من المدينة إلى مدينة أخرى، وسكناهنّ بعيدًا عن عائلاتهنّ. بعضهنّ عملن في الخياطة، وأخريات في التعليم، أو في إدارة مدارس.[38] وتؤكّد روايات النساء أنّ العمل لم يكن ظاهرة استثنائيّة، وإنّما كان سلوكًا عاديًّا ومقبولًا مجتمعيًّا. تتحدّث -مثلًا- هدى جرجورة خلال المقابلة معها عن أنيسة زريق التي تركت قريتها عيلبون وسكنت لوحدها في بيت في بيسان حيث عملت مديرةَ مدرسة. كذلك تركت سلمى خوري وأختاها الناصرة وسَكَنَّ حيفا، حيث عملت سلمى مديرة لمدرسة وعملت أختاها في التدريس، وسَكَنَّ لوحدهنّ دون أن يكون الأمر مثيرًا للاستهجان أو الاستغراب. تقدّم روايات النساء التي تسجّلها حسن شواهدَ على وجود نمط حياتيّ قد يبدو مستهجَنًا في عقود ما بعد النكبة، وربّما اليوم كذلك: "*كان أمرًا عاديًّا ولم يُثِرْ أيّة تساؤلات*".[39]

تضيف حسن أنّ هذه الظاهرة لم تشمل المهاجرات من قراهنّ فحسب، وإنّما شملت عزباوات من نفس المدينة استأجرن أحيانًا بيوتًا مستقلّة عن أُسَرهن وسَكَنّ في بيوت لوحدهنّ. على سبيل المثال، مهيبة وعربيّة خورشيد (من يافا) عملتا في التدريس، وسكنتا لوحدهما، وكانتا ناشطتين في جمعيّة "زهرة الأقحوان". وتقول سهام دبّاغ في المقابلة بشأن هذا النوع من الاستقلال:

"*كانت نساء مثلهنّ، كان طبيعيًّا ولم يكن عيبًا أن تسكن مهيبة وعربيّة لوحدهنّ*".[40]

ولافتٌ للنظر ما تنبّهت إليه حسن، إذ أشارت أنّ المصادر حول هذا الموضوع كانت من خلال الروايات الشفويّة فقط، بينما صمتت المصادر الأخرى المكتوبة عن هذه الظاهرة.[41]

---

[36] حسن، منار. المصدر السابق. ص ص 161-163.
[37] حسن، منار. مصدر سابق. ص ص 166-170.
[38] حسن، منار. مصدر سابق. ص ص 171-176.
[39] مقابلة مع سهاد دبّاغ. المصدر السابق. ص 173.
[40] المصدر السابق. ص. 174

تفنّد هذه الظاهرة أيضًا بعض الادّعاءات الأكاديميّة الإسرائيليّة والاستشراقيّة حول امتناع المرأة الفلسطينيّة عن العمل لاعتبارات تتعلّق بالعادات والتقاليد. وتقول حسن مُـجْمِلةً إنّ المجتمع الفلسطينيّ استدخل، في أعقاب محو ذاكرته المدنيّة، القراءةَ الاستشراقيّة الصهيونيّة التي ترى أنّ كلّ تقدُّم للمجتمع الفلسطينيّ داخل الخطّ الأخضر هو تمدُّن بفضل وجودنا في إسرائيل، دون أن يعي دَوْر إسرائيل في ترييف المدينة الفلسطينيّة.

دَوْرُ النساء البدويّات الإنتاجيُّ في فلسطين قبل النكبة:

أسهمت سياسات الاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ في إنتاج وتكريس مكانة دونيّة للمرأة البدويّة، ثقافيًّا واقتصاديًّا. تمثّلت تلك السياسات -وما زالت- في مصادرة ملايين الدونمات من أرض النقب، وفي النقل القسريّ لنصف سكّانه إلى ما سُمّيَ مدنًا في النقب، وكذلك في سلب الاعتراف عن مناطق سكن النصف الآخر منهم الذين ما زالوا يتعرّضون يوميًّا إلى هدم لقراهم وبيوتهم، وإلى ترحيل قسريّ إلى مناطق بعضُها نقلتْهم أصلًا إسرائيل إليها قبل عقود.[42]

يؤكّد عارف العارف في كتابه "تاريخ بئر السبع وقبائلها" على المكانة المركّبة لدى المرأة الفلسطينيّة قبل النكبة، فيشير إلى أنّ المرأة البدويّة منتِجة ومسهِمة في اقتصاد المنزل، ولكنّها تعاني من مكانة متدنّية قياسًا إلى الرجل. يقول: "المرأة البدويّة محترمة في أشياء فبينما تراها مسافرة، تجالس الرجال، تبيع وتشتري وتقوم بجميع لوازم البيت من طبخ وتحطيب وغزْل ونسج، تجدها محرومة من الإرث لا تتصرّف بمَهرها، وليس لها رأي في زواجها وتساق -في أغلب الأحيان-إلى رعي الإبل والغنم في الجبال والوديان".[43]

في شهادة أمّ فارس الصانع التي وثّقتها جمعيّة "ذاكرات"، تقول ما ينسجم مع حديث عارف العارف:

> *"كنّا ساكنين ببيت شَعِر، كنّا نسرح مع الغنم. أبوي كان متجوّز أربعة. كانت النسوان تحلب وتحصد وتدرس ويعملوا بيدر. كنّا مبسوطين وننزرع أرضنا وعايشين. كنّا نزرع قمح، وشعير، ذرة، بطّيخ، بطاطا، بندورة، عنب وتين. كان كلّ شي عنّا بالشريعة. كنّا نوكل قمح مع لبن، لحمة الخروف، السمنة والعدس والفاصوليا والكوسا والبندورة البلدي... إخوتي كان قسم يتعلّم ببئر السبع وقسم بغزّة، لأنّه عند البدو ما كان مدارس، والبنات ما كانوا*

---

[41] الهامش السابق، الصفحة نفسها.

[42] حول قوانين وسياسات مصادرة الأرض في النقب منذ عام 1948، وحول المقاومة الفلسطينيّة في النقب، وحول تجربة السكّان الفلسطينيّين البدو في النقب كمجموعة أصلانيّة وتغيير نمط حياتهم، في الإمكان مراجعة:

- Amara, Ahmad. (2013). The Negev Land Question: Between Denial and Recognition. **Journal of Palestine Studies**, 42 (4), Pp. 27-47.
- Abu-Saad, Ismael. (2008). Spatial Transformation and Indigenous Resistance: The Urbanization of the Palestinian Bedouin in Southern Israel. **American Behavioral Scientist**, 51(12), Pp.1713–54.

[43] مقتبس لدى: شحادة، صفاء. (2004). "لمحة تاريخيّة". لدى: الصانع، حنان وأخريات (محرّرات). **المرأة العربيّة في النقب: واقع وتحدٍّ**. بئر السبع: معًا- اتّحاد الجمعيّات النسائيّة العربيّة في النقب. ص 10.

يتعلّموا. كانت البنات تخيّط وتنسج بيوت شَعِر. أمّهاتهن كانوا يعلّموهم وهنّي صغار. زيّ ما بتشتغل الأمّ كانت تشتغل البنت".[44]

تؤكّد كذلك سراب أبو ربيعة أنّ الانتقال القسريّ إلى المدينة، وتغيير نمط الحياة الذي اعتادت عليه المرأة في النقب، أفقداها مكانتها الأولى كشريكة في صنع القرار في الأمور الأساسيّة في حياتها، كحلْب الأغنام، وتحضير الطعام، وصيانة الخيمة، وإحضار الأخشاب، وكذلك إحضار المياه من الآبار، وهو ما أكسبها دَوْر المنتجة والمسهِمة في نَواحٍ ذات قيمة في الحياة البدويّة، فأعطاها امتيازًا كامرأة وقدرةً على الموافقة أو رفض ما لا يلائمهنّ. وفي هذا الانتقال، لم تفقد المرأة أهمّيّتها في البيت فحسب، وإنّما فقدت كذلك مهارات تُمكّنُها من العمل خارج البيت. ولم تُفتح أمامها فرص عمل ملائمة لقدراتها ولطريقة حياتها.[45] في فيلم "مَشاهد منسيّة"، في مقابلة مع خضرة الصانع مديرة جمعيّة سدرة في قرية اللقيّة،[46] تقول في سياق تعريف مشروع الجمعيّة في تشغيل النساء في النسيج إنّ النساء البدويّات كنّ شريكات في اقتصاد العائلة من خلال الزراعة ورعاية الأغنام والحلْب وإنتاج اللبن.

"النساء أنفسهنّ قبل الـ 48 كنّ منتجات. يعني من نسيجها كانت تبني بيتها. من الحليب كانت تنتج الألبان. من الأرض كانت تجفّف الخضرة والفواكه. بعد مصادرة الأراضي وتحديد المراعي تقلّص دَوْر المرأة وصارت منطوية في بيتها، وصارت مرتكزة على الرجل. فالمرأة تَحدّد دَورها بشكل كبير في البيت حتّى بالنسبة لدورها من ناحية اجتماعيّة يكون لها رأيها في البيت. بالنسبة لتوخد قرار في البيت كمان تقلّص، لأنّه ما صار إلها دور فعّال في عائلتها وبيتها حتّى في الدور البسيط: تربية الأطفال".[47]

ولكن إذ تؤكّد الناشطات والباحثات على هذه الحقائق، في سياق أبحاثهنّ أو خلال المقابلات، وإذ تتعامل الأطر النسويّة في النقب مع هذه الرواية كمرجعيّة في فهمها لضرورة العمل من أجل رفع مكانة النساء البدويّات الاقتصاديّة، فإنّنا في مراجعتنا للأدبيّات لم نجد بحثًا نوعيًّا يروي تاريخ المرأة البدويّة تحديدًا قبل النكبة، ولا سيّما دورها الإنتاجيّ في تلك الفترة ومن خلال سماع أصوات النساء أنفسهنّ،[48] وذاك يجعلنا نؤكّد ضرورة القيام بأبحاث كهذه قبل أن نفقد هذا الرعيل من النساء، ولا سيّما أنّ الشهادات القليلة التي سمعناها تشير إلى هذا الدَّوْر.

---

[44] من شهادة أمّ فارس الصانع من الشريعة في النقب (كانت في الـ 73 من عمرها حين إجراء المقابلة معها).

- جمعيّة ذاكرات. (2014). أمّ فارس الصانع. جمعيّة ذاكرات (مستقاة بتاريخ 2017/10/02).

[45] –أبو ربيعة قويدر، سراب. (2005). نماذج من النشاط: النساء البدويّات في النقب. **مِفْنِيه** (تحوُّل)، 46 –47، ص ص 23–26. (بالعبريّة)

– الصانع، حنان. مصدر سابق.

[46] جمعية نسائيّة تُعنى برفع المكانة الاجتماعيّة والاقتصاديّة للنساء في النقب.

[47] المقابلة مأخوذة من فيلم "مَشاهد منسيّة"، (2006)، من إنتاج شركة الأرْز، وإخراج تغريد مشيعل.

قناة الأرْز. (AlArz P). (2011). فيلم مَشاهد منسيّة.

[48] تجدر الإشارة أنّ هناك بعض الأبحاث التي تعالج مكانة المرأة البدويّة في ظلّ سياسات الدولة. في الإمكان مراجعة:

خاتمة

حاولنا، في هذه الورقة، الإسهام في إعادة الاعتبار للأدوار الإنتاجيّة التي اعتادت المرأة الفلسطينيّة أن تتولّاها في ما قبل نكبة عام 1948، وذلك من خلال مراجعة بعض الأدبيّات والروايات الشفويّة من وثائق تطرّقت إلى الموضوع وأحضرت أصوات النساء وسردهنّ لحياتهنّ.

تقوم الأبحاث والشهادات أعلاه بدحض الرواية الإسرائيليّة ذات التوجّه الثقافيّ حول المجتمع الفلسطينيّ والمرأة الفلسطينيّة، التوجّه الذي يقرن غياب المرأة الفلسطينيّة عن الحيّز العامّ وعن العمليّة الإنتاجيّة بعوامل ثقافيّة مرتبطة بالمجتمع العربيّ وتقاليده. كذلك تقوم بعض هذه الأبحاث التي راجعناها بالاستئناف على الرواية الفلسطينيّة التي قامت برَمْنَسة القرية وتحويلها إلى رمز فلسطين وبالتالي تغييب دَوْر المرأة الإنتاجيّ بداخلها، وكذلك بمحو ذاكرة المدينة وتصوير فلسطين على أنّها مجتمع ريفيّ خالٍ من المدينة.

تشير ادّعاءات الباحثات أعلاه المدعَّمة بروايات النساء -إضافة إلى الأدوار الإنتاجيّة التي تقوم بها النساء، وإلى بعض الممارسات الاجتماعيّة في تلك الفترة-تشير كذلك إلى مشاركة النساء في صنع القرار العائليّ، وكذلك إلى وجود مساحات من الحرّيّة عاشتها النساء، تمثّلت في الخروج من البيت والسفر والسكن خارج قراهنّ وخارج بيوت أهاليهنّ. لم يكن ذاك الحضور داخل المجال العامّ إلّا جزءًا من واقع اجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ. كان ذاك حضورًا داخل حيّزات ومساحات و مفهومة ومقبولة اجتماعيًّا ومرتبطة بالواقع الاقتصاديّ الذي عاشه الناس في تلك الفترة، والذي كانت المرأة صاحبة دَوْر فيه، وأحيانًا كانت هي عمادًا له. وبالتالي، حضورها في المجال العامّ لم يكن مستهجَنًا، على نحوٍ ما تحاول الأدبيّاتُ الاستشراقيّة أن تُظهِر، وعلى نحوٍ ما تستدخله أحيانًا الروايةُ الفلسطينيّة. لم تتناول الورقة حضورَ المرأة الفلسطينيّة السياسيَّ أو الثقافيَّ في تلك الفترة،[49] بل اقتصرت على القيام بقراءة في أدوارها الإنتاجيّة دون محاولة لرَمْنَستها أو خلق صورة

- Abu Rabee, Rawia.(2011). Redefining Polygamy Among the Palestinian Bedouins in Israel: Colonialism, Patriarchy, and Resistance. **American University Journal of Gender**, **Social Policy & the Law**, 19 (2), Pp. 459-493

وحول العنف ضدّ المرأة البدويّة:

- أبو شارب، إنصاف. (2012). **مؤامرة الصمت: العنف داخل العائلة ضدّ النساء العربيّات في النقب**. منظّمة إيتاخ معكِ.

وحول تعليم المرأة البدويّة:

- Abu-Rabia-Queder, Sarab. (2008). Politics of Conformity: Power For Creating Change. **Ethnology**, 47(4), Pp. 209–25.

[49] للقراءة عن الأدوار الاجتماعيّة والثقافيّة والنضاليّة التي قامت بها المرأة الفلسطينيّة قبل النكبة، في الإمكان مراجعة ما يلي:

- حسن، منار. مصدر سابق.
- عبد الهادي، فيحاء. (2005). **أدوار المرأة الفلسطينيّة في الأربعينيّات: المساهمة السياسيّة للمرأة الفلسطينيّة**. البيرة، فلسطين: مركز المرأة الفلسطينيّة للأبحاث والتوثيق.
- النجّار، عايدة. مصدر سابق.

تغيّب واقع قهر اجتماعيّ عاشته النساء في تلك الفترة، وذلك بغية إعادة الاعتبار للرواية ومقاومة محو الذاكرة حول فعّاليّة اقتصاديّة مركزيّة كانت للنساء وقُضِيَ عليها، ولفضاءات ومساحات تحرّكت فيها النساء قد حوصرت، ثمّ ضُيّق عليها، ثمّ جرى خنقها. ختامًا، نشير إلى ضرورة استمرار البحث في أدوار النساء الإنتاجيّة وكذلك الثقافيّة والاجتماعيّة في ما قبل النكبة، ولا سيّما بشأن المرأة في النقب.